



# العلاقات

يصدرها حزب الاتحاد الاشتراكي العربي

تعنى بقضايا الفكر والسياسة والثقافة السنة السادسة عشرة - العدد ٤١٤ - الثلاثاء - ٢ نيسان / أبريل / ٢٠١٩ ثمن النسخة ٢٥ ل.س

عدد خاص

## هل هناك خريطة جديدة للشرق الأوسط؟

# و... جمال عبد الناصر والصلح

د. بارعة القدسي

## حين أصبح (رابين) عاطلاً عن العمل

التوسع، والدليل هو أن الذين زاروا الكنيسة الإسرائيلى في القدس لم يجدوا أية خريطة تعين الأراضي التي تنوي إسرائيل احتلالها. أي أنهم لم يجدوا خريطة ما يسمى بإسرائيل الكبرى، ومع ذلك فإن قادة إسرائيل يتحدثون عن أن الحدود الآمنة لإسرائيل هي حيث يصل الجيش الإسرائيلى.

خريطة إسرائيل الكبرى، كما يكتب (بيريز)، ليست أكثر من خرافة عربية لها أثر أقوى من أثر الواقع نفسه، وتغيير الوقائع أسهل بكثير من إزالة الخرافات، ومع ذلك فإن (موشي دايان) يعلن: من دون مواربة: (إن جيلنا هو الذي صنع إسرائيل عام 1948، وجيلكم هو الذي صنع إسرائيل عام 1967، والجيل القادم سوف يصنع إسرائيل الكبرى). فأى شيء هي إسرائيل الكبرى إن لم تكن الخريطة التي تعين الأراضي العربية التي تنوي إسرائيل احتلالها؟

(4)

مثال فريد في التضليل السياسي، ونموذج نادر في تزييف الوقائع التاريخية. الولايات المتحدة خذلت إسرائيل وتركتها معرضة للدمار؟ ومع ذلك فإن الجياد المعصوبة العيون والمفتونة بالدوران حول نفسها تريد أن تصدق.

أليس كافياً أن (إسحق رابين) وقف ذات يوم ليعلن أنه أصبح عاطلاً عن العمل بعد أن عمدت الولايات المتحدة إلى تلبية كل ما طلبته إسرائيل منها؟



(1)

أجازلي مؤلف كتاب (السياسة المسلحة) أن أستعير من كتابه بعضاً مما نشره في جزء من أجزاء الكتاب. وهذا الذي أستعيره هو أن (شمعون بيريز) في دراسته التي حمل هذا العنوان: (يوم قريب ويوم بعيد)، يكتب في معرض محاولته إظهار إسرائيل بمظهر الباحث عن السلام الذي لا يريده العرب، وفي معرض حديثه عن الطريقة التي يمكن بها تحرير جمال عبد الناصر من الخوف والتوجس الذي يشعربه تجاه إسرائيل، وكان ذلك قبل حرب حزيران بأسابيع معدودة: (يجب علينا أن نعيش من دون حرب في السنوات العشر المقبلة. فالحرب مجازفة قد تعرض أية حضارة إلى الدمار. ولقد عانى اليهود الذي يسكنون إسرائيل كثيراً من ويلات الدمار والحروب، وهم لن يجدوا فائدة في أية مجابهة عسكرية، مهما كان أمرها).

(2)

هل يمكن النظر إلى هذا النص باعتباره يشكل نموذجاً للصوت الإسرائيلى في حديثه إلى العالم الخارجى؟ ربما كان ذلك صحيحاً إلى حد كبير. ففي الوقت الذي كان (بيريز) يشارك في التخطيط للحرب المقبلة مع العرب، وكانت في ذلك الوقت حرب عام 1967، باعتباره أحد القادة البارزين في الحياة السياسية الإسرائيلىة، وصديق (بن غوريون)

(موشي دايان) المخلص، كان يعلن على صفحات مجلة (الأزمة الحديثة) الفرنسية عن رغبة إسرائيل في السلام، وعن خطر الدمار الذي تؤدي إليه الحروب.

(3)

إسرائيل، كما يكتب (بيريز)، لا تسعى إلى

## هل هناك خريطة جديدة للشرق الأوسط؟

مصطفى نبيل

استطاعت بريطانيا أن تنهي بأجوشها قد اقتحمت آخر الحصون في العالم. وأجرت تلك المسألة المزعجة الشرق الأوسط القابل للانفجار، التي استمرت ملحمة في السياسة العالمية منذ حملة نابليون على مصر. وما هي قد سويت بواسطة ترتيبات ما بعد الحرب التي توصلت إليها الدول الأوروبية. فأقامت بريطانيا دولة وعينت حكاما، ورسمت حدودا جديدة، وأجلست بريطانيا فؤاد الأول على عرش مصر عام 1922. وجعلت مصر محمية بريطانية مستقلة بإعلان اللبني، وأنشأت محمية العراق بموجب معاهدتها التي عقدتها في ذات العام. وأجلست على عرشه مرشحها فيصل، وبمقتضى أحكام الانتداب على فلسطين عام 1922، وضع شرق الأردن على الطريق ليشكل وجودا سياسيا، ووضع الأمير عبدالله على رأسه، أما فلسطين فقد وعد اليهود بوطن قومي ووعد غير اليهود بحقوق كاملة.

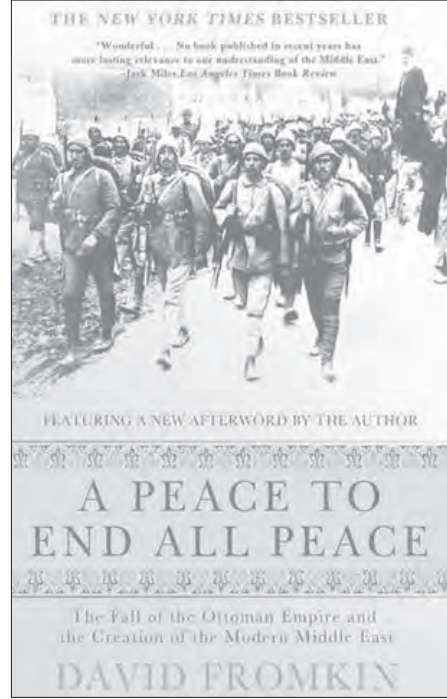
ويؤكد الكاتب الأمريكي أن هذه التقسيمات جاءت مصطنعة، ولم يلبث أن عم الاضطراب هذه المناطق، وكانت البداية ثورة 1919 في مصر، وثورة العشرين في العراق، وانتقلت الاضطرابات إلى أفغانستان وإيران وتركيا. وقيام هذه الدول كان أحد نتائج صراع القوى الكبرى، فالعراق والأردن اختراعا بريطانيا، وأقيمت حدود السعودية والكويت والعراق من قبل موظف مدني عام 1922، ورسمت فرنسا الحدود بين سورية ولبنان.

ويخلص الكاتب من ذلك إلى أن سيطرة الدول الأوروبية أدت إلى تدمير البنى الأساسية التي كان يعيش في ظلها الأهالي، وإقامة بنى أوروبية جديدة، ولكن السؤال الملح هو: هل يحدث في الشرق ما حدث في أنحاء العالم الأخرى من الأخذ بهذه النظم وما تحدثه من أثر

قيام هذه الدول كان  
أحد نتائج صراع القوى  
الكبرى، فالعراق والأردن  
اختراعا بريطانيا،  
وأقيمت حدود  
السعودية والكويت  
والعراق من قبل موظف  
مدني عام 1922،  
ورسمت فرنسا الحدود  
بين سورية ولبنان.

ثماني سنوات من سنة 1914 حتى سنة 1922. كشف فيه خلال 650 صفحة من الترجمة العربية، العديد من القضايا التي لم يكشف عنها الستار، وهي الفترة التي لم تكن فيها الولايات المتحدة طرفا فاعلا.

وما أن بزغ فجر القرن العشرين، إلا وكان الشرق الأوسط هو الحصن الوحيد الذي لم يقتحمه الأوروبيون- باستثناء شرق آسيا- فقد كان من بقايا الإمبراطورية العثمانية في آسيا، لذلك كان تثبيت سيطرة الحلفاء في الشرق الأوسط ذروة استيلاء أوروبا على بقية العالم، والفصل الأخير في مغامرات استعمارية شديدة الخطر، ومع نهاية الحرب العالمية الأولى،



وشديدة الفقر كما تهدف إلى ضمان مستقبل إسرائيل.

ومن يتابع هذه الأبحاث، يشعر وكأن العالم يعود إلى الورا، إلى الفترة التي تشكل فيها دول الشرق الأوسط. عندما اقتسمت كل من بريطانيا وفرنسا أراضي الإمبراطورية العثمانية، وهي ذات الترتيبات التي يعملون على تغييرها. وفي هذا الإطار، صدر كتاب أمريكي بالغ الأهمية، عنوانه: (السلام الذي ينهي السلام)، أو (سلام ما بعده سلام)، كتبه دافيد فرومكين، عضو مجلس العلاقات الخارجية الأمريكية، والكاتب في مجلة (فورين أفيرز)، والذي صاغ من الوثائق والأسرار والمذكرات قصة قيام الشرق الأوسط، والذي تشكل خلال

ما هي حقيقة الخريطة الجديدة للشرق الأوسط؟ وهل يمكن أن يعاد تقسيمه كما حدث في عشرينيات القرن الماضي؟ وما الذي يراد من المنطقة العربية في ظل المتغيرات العالمية الجديدة؟

وهل يمكن ونحن في القرن الواحد والعشرين، أن تطرح أفكار حول مستقبل البلدان العربية بعيدا عن دوله وشعوبه؟ وما هو الحد الفاصل بين الوهم والحقيقة في المشروعات والأفكار المطروحة؟ ولماذا يعيد الغرب طرح أسس التقسيم القديم؟

تطرح من جديد أفكار وآراء حول إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط، وتولي مراكز البحث الغربية أهمية كبيرة لمستقبل المنطقة العربية، ويرى الباحثون الغربيون في النظام العربي ماضيا عتيقا استنفد أغراضه، ويبحثون عن صيغة جديدة ونظام شرق أوسطي جديد.

ويقسّمون الشرق الأوسط إلى عدة أنساق، يفصلون فيها دول الخليج عن مصر والشام، ومصر والشام عن دول المغرب العربي التي يلحقونها بدول جنوب أوروبا ودول حوض البحر الأبيض. ويدخل البعض ضمن الشرق الأوسط دولاً مثل قبرص وأفغانستان وتركيا وباكستان والجمهوريات الإسلامية التي استقلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، كما يدخلون إسرائيل، وتخرج منه عند البعض دول عربية مثل المغرب والجزائر وتونس وأحيانا ليبيا والسودان.

والهدف الذي تسعى هذه الدراسات لتحقيقه من النظام الجديد، منع ظهور قوة محلية تنازع في السيطرة على مستودعات الطاقة في هذه المنطقة الحساسة من العالم، أو تتحكم في فوائض البترول، ومعالجة الخلل الاستراتيجي المتمثل في التهديد الذي تتعرض له دول صغيرة قليلة السكان وشديدة الغنى، من دول كثيفة السكان



المدير المسؤؤل المشرف على التحرير: صفوان قدسي

أمين التحرير: ماجدة جبور | الإخراج الفني: لارا توما

الإدارة والتحرير: دمشق - حي الروضة - هاتف: ٣٣١٥٤٠٣ | فاكس: ٣٣١٥٤٠٢

الاشتراك السنوي: للأفراد ١٠٠٠ ل.س | للمؤسسات ٣٠٠٠ ل.س | تصدر مرة كل أسبوعين مؤقتاً

فيسبوك: حزب الاتحاد الاشتراكي العربي | الموقع الإلكتروني: www.asuparty.org | الإيميل: info@asuparty.org

فيسبوك: الجبهة الوطنية التقدمية | الموقع الإلكتروني: www.Pnf.org.sy

الميثاق



الأوسط مكانا للقتال والحرب في المستقبل.. (وكانت الشعوب والبلدان موضع مقايضة تنتقل من سيادة دولة إلى أخرى وكأنها سلع أو بيارق. ولم يتحقق شيء لمصلحة الأهالي، إنما من أجل تهيئة الأجواء للتوفيق بين مطالب دول متنافسة)!!

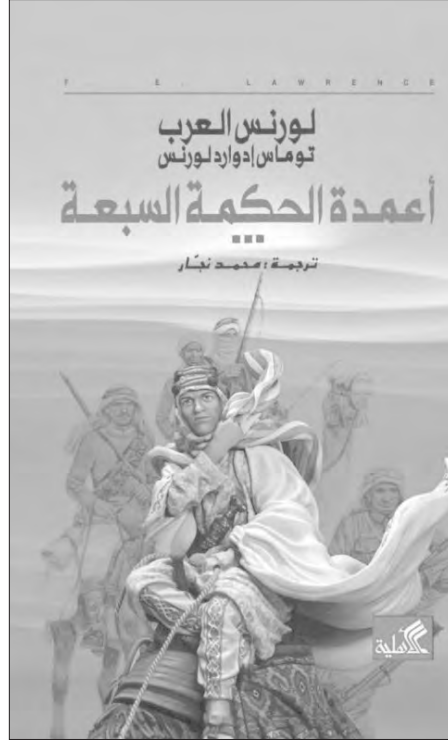
## سقوط الأوهام!!

ونتوقف قليلا عند عدد من الشخصيات التي يزج عنها الكاتب الستار، والتي لعبت أدوارا هامة في ولادة الشرق الأوسط، وأول هذه الشخصيات هو لورانس العرب، الشخصية ذات الأفق الكاذب، الذي لم يكن الصدق من فضائله، ويكشف الكاتب الأمريكي سر الأسطورة الكاذب، والذي لم يكن أكثر من شخصية مصرية صنعها كاتب موهوب وطموح، فبفضل جهود أمريكي اسمه لويل توماس، وهو مقدم عروض ناشئ في الخمسة والعشرين، طموح يبحث عن الشهرة والثروة خلال الحرب العالمية الأولى، فسافر إلى جبهة القتال باحثا عن قصة تصلح لعمل مسرحي، فالتقى بلورانس وهو يرتدي اللباس العربي، فقرر أن يجعل منه بطله المنشود لقصة مثيرة تكون الأساس لعرض مسرحي يمكن تسويقه وذيوعه، وقدم في العمل كل عناصر الأسطورة، لورانس قائد وملهم ثورة عربية تدمر الإمبراطورية العثمانية. وكتب لهذا العرض النجاح والانتشار، وعرض في نيويورك على مسرح سنشري، ونقل إلى حديقة ميدان ماديسون، وحقق نجاحا كبيرا انتقل بعده إلى لندن، واستمر يعرض بها لمدة سنة أشهر، وشاهده ما يزيد على مليون مشاهد، ثم طاف بالعرض حول العالم، وخلقت الأسطورة، وصدقها حتى صاحبها!!

ماذا بعد أن استعرضنا الكتاب الذي يروي قصة ثماني سنوات شكلت دول الشرق الأوسط بحدودها الحديثة؟ ألا يحق لنا أن ننسأل: هل يمكن أن تفرض خريطة جديدة على المنطقة من دون العودة إلى دولها وأهلها؟

وألا يفرض ذلك على الفكر العربي ومؤسساته المبادرة، بوضع معالم المستقبل، ومواجهة العالم بفكر موحد، وحتى يصبح العرب طرفا فاعلا في صنع الحاضر والمستقبل؟

فلم يعد مقبولا أن يكتفي (الفكر العربي) بنقد الغير عاجزا عن المبادرة وسد الفجوة بين الأفكار المجردة والوقائع القائمة، حائرا بين موازين القوى السائدة والشعارات والأهداف المطروحة كما كان عليه الحال في عشرينات القرن العشرين. ويثير الدهشة جاهل الجامعات ومراكز البحث هذه القضية، وكأنه كتب علينا أن يصنع مستقبلا غيرنا.



السياسات وظهر الصراع بين السلطات البريطانية في الهند ومصر، حتى لقد عاد الضابط السياسي ستورز- كما برهن الكاتب- وحذف من مذكراته ما جاء عن الخلافة في برقية كيتشنر إلى الحسين عام 1914. وادعى لورانس أن المكتب العربي آمن بالقوموية العربية منذ البداية.

## العباءة الخضراء

ولا يفوت الكاتب في دراسته الأعمال الأدبية التي تعبر عن صورة العرب في الخيلة الغربية، وأبرز هذه الأعمال رواية (العباءة الخضراء) التي صدرت عام 1916 لمؤلفها البريطاني جون بوتشان. وقد عبرت هذه الرواية عن المخاوف من اشتعال حرب دينية، ويتخيل استخدام ألمانيا (نبي جديد مزيف) في خطة تدمير الإمبراطورية البريطانية، وينتقل هذا النبي إلى تركيا. (ثمة ريح جافة تهب عبر الشرق، والهشيم في انتظار شرارة، وهذه الرياح تهب في اتجاه الحدود الهندية). وتقول الرواية في الفصل الثاني: (إننا الجنس الوحيد الذي يستطيع تدريب رجال قادرين على النفاذ إلى ما وراء جلود شعوب نائية، وربما يكون الاسكتلنديون أفضل من الإنكليز، ولكننا جميعا أفضل ألف مرة من أي جنس آخر).

والسمة العامة لأدبيات هذه المرحلة التاريخية، سوء الفهم والمراوغة والخداع. يكتب الصحفي البريطاني جورج ستيفنز عن العربي قائلا: (ابن الأكاذيب الغامض)، ويقول مبعوث الرئيس الأمريكي عن الخططات البريطانية: (هذه خطة كلها سوء، تجعل من الشرق

استخلاص عبر الماضي ودروسه، ومعالجة طبيعة العقبات التي تواجه هذا النظام من موقع وطني يحرص على مستقبل أهله.

## القوموية والدين

وإذا كان الشرق الأوسط يواجه احتمالات التغيير التي يتوقعها الكاتب، فما أجدنا بقراءته، لكي نتأمل كيف فعلها الغرب، وأعاد رسم خريطة المنطقة.

يقف إلى جانب فكرة الكاتب الجهورية، تفاصيل كثيرة يجدر تأملها، ولعل أهمها تراوح السياسة البريطانية بين تأييد فكرة انتقال الخلافة العثمانية إلى العرب أو إقامة الدول الجديدة في المنطقة على أساس الفكرة العربية.

وهنا يلاحظ عدم اهتمام بريطانيا بمضمون الأفكار المطروحة، وتركز اهتمامها على مصالحها، وتصبح الأفكار لديها أداة فعالة للانقسام والتناحر، وهذه المرحلة التاريخية تزخر بالمراوغة والخداع والوعود الكاذبة، والعرب سكان المنطقة ليسوا بشرا كغيرهم بل أشباحا بلا ملامح أو مطامح أو أهداف.

بل ولم تكن السياسة البريطانية قائمة على خطة استراتيجية، إنما على سياسات تتغير بتغير الأحوال، ولم تكن القضية العربية أكثر من واجهة تأمل بريطانيا أن تحكم من خلفها.

ترتبط الخريطة الجديدة للشرق الأوسط باللورد كيتشنر، الذي رسم الخطة الرئيسية للاستيلاء على دول الشرق الأوسط، وأمسك بكل خيوط المسألة، فهو صاحب الحرب المنتصرة ضد الثورة المهديّة في السودان، وهو الذي حكم مصر (البلد الذي كان جزءا من الإمبراطورية العثمانية من وجهة النظر الرسمية، ولكنه واقعا كان بلدا مستقلا حتى احتلته بريطانيا مدعية أن هدفها هو إعادة النظام ثم ترحل، ولكنها بقيت ولم ترحل).

واستمر حلمه- حتى وهو وزير للدفاع خلال الحرب- أن يعود إلى مصر من جديد، فكرته الأساسية التي سعى لتنفيذها أن لبريطانيا مصلحة حيوية في الاستيلاء على جانب كبير من الإمبراطورية العثمانية الناطقة بالعربية، حتى لا تستخدم الدولة العثمانية (الخلافة) في تقويض مركز بريطانيا في الهند ومصر والسودان، خاصة وبريطانيا حكم أكثر من نصف مسلمي العالم، وحتى تمنع الدولة العثمانية من إعلان الجهاد ضد بريطانيا. وكان يهدف إلى استيلاء بريطانيا على طريق بري إلى الهند، يبدأ من جزيرة قبرص ثم الإسكندرون ويمتد إلى بلاد الرافدين، وكان يخشى أن تسبقه روسيا وتستولي على هذه المناطق.

وشجع كيتشنر الشرف حسين على المطالبة بالخلافة، ولكن سرعان ما تضاربت

عميق ودائم؟، وأهمية هذا السؤال ليس فقط لأن الشرق منطقة حضارات قديمة عريقة يفخر بها أصحابها وله معتقدات عميقة الجذور، بل لأن التغييرات الجذرية التي اقتحمت حياة الشرق تحتاج إلى أجيال متعاقبة قبل أن تضرب بجذورها في الأرض.

فقد صاغ السياسيون الغربيون النظام الجديد، ونشروا الجنود والطائرات في مساحة تمتد من مصر إلى العراق، وسقط الحكم التركي للشرق ولم تتوقف المعارضة المحلية ولا الرفض العميق لهذه النظم. ويعاني التقسيم الجديد منذ اللحظات الأولى لقيامه من التناقض والاضطراب، فمثلا لم تكن الحكومة البريطانية راضية عن اختيار كيتشنر بين عامي 1914 و1916، رعايته الهاشميين كزعماء للشرق العربي، ومع حلول عام 1918، أخذ البريطانيون يعتبرون الشريف حسين عبئا عليهم، فهو يدفعهم إلى صراع خاسر مع ابن سعود، ومع حلول عام 1919، أخذوا ينظرون إلى فيصل ابن الحسين حاكم العراق باعتباره غادرا وإلى عبدالله حاكم الأردن باعتباره غير فعال. وما أن انتهت الحرب العالمية الأولى حتى اضطر مجلس الوزراء البريطاني للاعتراف بأن سياسته اختلفت في شبه الجزيرة العربية، نتيجة الخصومة بين حليفي بريطانيا الحسين ملك الحجاز وابن سعود سيد نجد، واشتكى الحسين من أنه مضطر لإنفاق 12 ألف جنيه شهريا من المساعدة البريطانية التي يتلقاها في سبيل الدفاع عن نفسه من هجمات يشنها عليه ابن سعود الذي يتلقى بدوره مساعدة تبلغ خمسة آلاف جنيه شهريا.

وتتغير السياسات وتتبدل المواقف ويستخلص الكاتب: (تطرح الأوضاع في الشرق الأوسط حق الوجود لبلدان قامت كالعراق وإسرائيل والأردن ولبنان، لذلك لا يزال الشرق الأوسط حتى اليوم، المنطقة التي تشهد حروبا من أجل البقاء، وتستمر المقاومة للسياسات الغربية وتشكل خاصية تميز هذه المنطقة، نتيجة غياب الإحساس بالشرعية من جانب، وغياب قواعد اللعبة السياسية المتفق عليها من جانب آخر. فالشرق الأوسط منطقة لبلدان لم تصبح أبدا بعد، وربما أصبح الشرق الأوسط شبيها بوضع أوروبا في القرن الخامس الميلادي، عندما انهارت سلطة الإمبراطورية الرومانية، ودخلت الإمبراطورية في خضم صراع حضاري طويل، حتى انبثق من هذا الصراع نظام سياسي جديد).

وهذه الفقرات التي نقلتها عن الكاتب بنصها تعبر عن الرسالة التي يحملها كتابه، وهي هشاشة النظام العربي وقابليته للتغيير، وهي أخطر ما يتضمنه كتابه، مما يفرض على العقل العربي

## هشاشة النظام العربي وقابليته للتغيير، أخطر ما يتضمنه كتابه، مما

## يفرض على العقل العربي استخلاص عبر الماضي ودروسه.

# ماركيوز... والصراع العربي الإسرائيلي

د. فؤاد زكريا

الذي تقوم به الأقليات المضطهدة في تحرير البشرية، ونظرته إليها بوصفها وريثة الروح الثورية، وأمل الإنسانية الوحيد ضد قوى الظلم والقمع، كان فيه تأثر ضمني بموقفه من حيث هو مفكر ينتمي إلى شعب يعد نفسه أقلية مضطهدة حيثما كان. والدليل على صحة هذا التفسير أن ماركيوز قد استخدم لفظ (الغيتو ghetto) للدلالة على هذه الفئات التي يرى أنها صانعة التاريخ، وهو لفظ معروف مشتق من التراث اليهودي بالذات. وإذا كان من الشائع لدى بعض الكتاب استخدام هذا اللفظ للتعبير عن الأقليات المضغوطة بوجه عام، فإن استخدام ماركيوز له يزيد من قوة الارتباط بين الفئة التي لا تقبل العيش في ظل استبداد المجتمع الصناعي المتقدم، وبين الطوائف اليهودية بالذات.

ومن المؤكد أن صورة اليهودي هي أول صورة تقفز إلى ذهن القارئ، وتبعث فيه إحساسا لا شعوريا بأن اليهود هم على الأقل فئة رئيسية من الفئات التي ستخلص البشرية من مظالم النظم السائدة، حين يقرأ السطور التي يصف فيها ماركيوز، قرب نهاية كتاب (الإنسان ذو البعد الواحد)، تلك الفئات الهامشية التي هي معقد الأمل في الثورة على استبداد المجتمع الصناعي. فيقول: (إنها قوة بدائية تخالف قواعد اللعبة، وهي إذ تفعل ذلك إنما تكشف زيف هذه اللعبة، وعندما يتجمعون، وعندما يسبغون في الطرقات بلا سلاح، وبلا حماية، مطالبين بأبسط الحقوق المدنية، يعلمون أنهم يعرضون أنفسهم للكلاب وللحجارة، وللقنابل، وللسجن، وللعسكرات التعذيب، بل ولموت).

إن صورة مخلصي البشرية، عند ماركيوز، تحمل إذن ملامح يهودية واضحة، وأغلب الظن أن هذا التشابه كان لا شعوريا. مستمدا من تعاطفه مع الشعب الذي ينتمي إليه، وعجزه عن التحرر من تراثه الطائفي. ولكن آراء ماركيوز في هذا الموضوع لم تكن كلها تتخذ هذه الصيغة الضمنية غير المباشرة، ففي نص واحد على الأقل، عبر ماركيوز عن آرائه في قضية النزاع العربي الإسرائيلي تعبيرا صريحا. وكان ذلك في كتاب (نهاية اليوتوبيا La fin de l'utopie) (الترجمة الفرنسية ص128-130). في هذا النص، في هذا النص، الذي يسجل حوارا طويلا دار بين ماركيوز وبين بعض زعماء الحركة الطلابية في بلاد متعددة، حدث ماركيوز عن النزاع في الشرق الأوسط، وكان ذلك في سياق حديث أعم عن الرأسمالية المتقدمة والعالم الحديث، وكان زمن الحديث هو عام 1968.

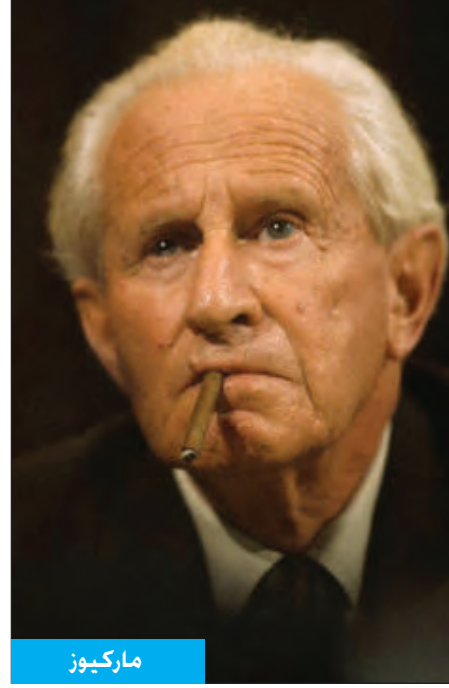
وقد بدأ ماركيوز بالقول إن هذا النزاع قد أحدث انقسامًا بين قوى اليسار، ذلك لأن اليسار ظل ينحاز إلى صف إسرائيل (وهو أمر مفهوم تماما)، ولكن هذا اليسار - ولاسيما الماركسي منه - لا يستطيع من ناحية أخرى أن يتجاهل أن العالم العربي، في جزء منه، مندمج بالعالم المعادي للإمبريالية، وهكذا يحدث الفصام موضوعي لدى اليسار بين

## النظام السائد استوعب هذه الطبقة في داخله وربط مصالحها بمصالحه، بحيث تحول بها من طبقة ثورية بالقوة إلى طبقة محافظة أو مسايرة بالفعل.

ولكن هذا التحرر كانت له حدود لا يتعداها، وكان من الطبيعي أن يضيق نطاقه في أحيان معينة، هي تلك التي يشعر فيها بأن هناك فرصة لتمجيد الشعب الذي ينتمي إليه، أو للدفاع عنه ضد خطر يهدده، على أنه في أغلب الحالات التي كان يتعاطف فيها مع شعبه كان يعبر عن رأيه تعبيرا غير مباشر، ينم عن تمجيد لا شعوري على الأقل لهذا الشعب.

فمن المعروف أن ماركيوز لا يؤمن بثورية الطبقة العاملة في البلاد الصناعية المتقدمة، لأن النظام السائد قد استوعب هذه الطبقة في داخله وربط مصالحها بمصالحه، بحيث تحول بها من طبقة ثورية بالقوة إلى طبقة محافظة أو مسايرة بالفعل. ولقد كان البديل الذي يكمن فيه أمل البشرية في التمرد على الأوضاع الجائرة السائدة، هو تلك الفئات الهامشية، المضطهدة، ذات الجنس الآخر واللون الآخر. تلك الفئات التي لا تندمج في المجتمع، لأنها مرفوضة أو منبوذة منه، هي في نظر ماركيوز صانعة التاريخ في مستقبل البشرية، وليس من الصعب أن يدرك القارئ تشابها واضحا بين أوصاف هذه الفئات الهامشية، وأوصاف الأقليات اليهودية في المجتمعات التي تعيش فيها. فهي بدورها (حسب الصورة المألوفة) خارجة عن المجتمع، تنتمي إلى (جنس آخر)، وهي مضطهدة، تعيش على الهامش، والأهم من ذلك أنها (غير مندمجة) بطبيعتها، بل إنها لا تسعى أصلا إلى الاندماج في مجتمعاتها، فهي في انغلاقها على نفسها، وفي انعزالها عن مجتمعاتها، تحقق الشرط الأساسي الذي يراه ماركيوز ضروريا لكل فئة قدرتها أن تصنع التاريخ، وتحقق المعجزة، وتخلص البشرية من اغترابها في العصر الحاضر.

لذلك أعتقد أن تأكيد ماركيوز للدور



ماركيوز

محيرا، يغضب الجميع ويرضي الجميع، فيكتسب بذلك نوعا من الأصالة فريدا غير مأروف، ويقبل عليه الكل لأنهم لا يمكنهم أن يجزموا إن كان معهم أم عليهم، وينحاز إليه الشباب بوجه خاص، لأن الشباب - في عالم تمزقه الحروب والصراعات الإيديولوجية - ينحاز بطبيعته إلى كل من يتجسد فيه نزوعه الخاص إلى عدم الانتماء.

هذا الغموض المتعمد، في المواقف السياسية والإيديولوجية، هو بعينه الأسلوب الذي يتبعه ماركيوز في تحديد موقفه من المشكلة اليهودية بوجه عام، ومن النزاع العربي الإسرائيلي بوجه خاص. فهو في هذه الحالة بدورها يتخذ لنفسه مظهر الموضوعية التي تكشف عن عيوب الطرفين معا، ويبدو في الظاهر كما لو كان يستهدف غايات تعلق على المصالح الضيقة لهذا الجانب أو ذاك، بحيث يصعب على القارئ العادي أن يحدد بوضوح الظرف الذي ينتمي إليه، ولكن قليلا من التروي كفيلا بأن يكشف عن موقفه الحقيقي، الذي أستطيع أن أقول باطمئنان إنه كان منحازا لشعبه على حساب العرب، وعلى حساب الحقيقة.

لقد كان ماركيوز في اتجاهه العام يهوديا غير متعصب، ولكنه في الوقت ذاته لم يكن يهوديا متمردا، على غرار اسبينوزا أو ماركس، وكان قبله أن يشتغل سنوات طويلة في جامعة برانديس Brandeis الأمريكية أمرا ذا دلالة، إذ أن هذه الجامعة يهودية صريحة، في تكوينها وفي اتجاهها الثقافي وفي أساتذتها وطلابها، وليس في هذا ما يعيب أستاذًا يهوديا هاربا من الحكم النازي، ولكن اليهودي المتمرد لا يقبل أن يقوم بمهمة كهذه، فهو إذن كان متحررا لم يصل إلى درجة التمرد.

لو كانت هناك مشكلة يصعب الانتهاء فيها إلى رأي قاطع في صدد فكر هيربرت ماركيوز السياسي والإيديولوجي، لكنت تلك مشكلة خديد أنتمائه، فهو قد بذل كل ما في وسعه من جهد لكي يقنع العالم - الذي أصغى إليه بانتباه شديد في السنوات الأخيرة - بأنه خارج عن جميع التيارات التي تتصارع في عالمنا المعاصر، وعلى الرغم من أن السلب، أو الرفض، كان هو القوة الدافعة له في خديه للأنظمة القائمة، فإن خروجه عن هذه الأنظمة لم يكن (سلبيا) على الإطلاق. أعني أنه لم يكن من تلك الفئة من المفكرين الذين يرفضون كل ما هو موجود بدافع اليأس أو التشاؤم أو السأم أو عدم الاكتراث، ويتخذون من صراعات العالم موقف المتفرج الساخر أو الحكيم المتعالي، فالسلب عنده لم يكن تباعدا أو رفضا لتحمل المسؤولية، ولم يكن انعزالا أو عزوفا، وإنما كان في صميمه روحا نقدية، والفرق واضح بين السلب المتعالي أو غير المكترث، وبين السلب النقدي، إذ أن الأخير يفترض اندماجا كاملا فيما ينقده، ومعايشة تامة له، مع رفض للأسس التي يرتكز عليها، أما الأول فقد يتم من دون معاناة حقيقية، لأنه لم يعايش ولم يندمج.

وهكذا رفض ماركيوز طريقة الحياة الرأسمالية والتطبيقات الاشتراكية في بلاد الكتلة الشرقية، وجمع بين الاثنين معا تحت فئة واحدة، أطلق عليها اسم (المجتمع الصناعي المتقدم)، وكان جهده الأكبر منصبا على كشف نواحي التقارب بين النظامين فيما يشبه (في رأيه) أن يكون مؤامرة منهما معا على حرية الإنسان الحديث، على أن هذا الهجوم المزودج يمكن أن يكون في الوقت ذاته دفاعا مزدوجا، فالنقد الموجه إلى النظم الاشتراكية يرضي الولايات المتحدة، ويسدي إليها خدمة جليلة، والنقد الموجه إلى البلاد الرأسمالية يتلاقى مع وجهات نظر المعسكر المعادي لها، ومن هنا كان أقصى ما يمكن أن يوصف به موقف الطرفين من ماركيوز هو أنه موقف عدم الارتياح، ولكنه ليس موقف التحريم أو الخصومة الشديدة، فهو ينقد كل طرف ويخدمه في آن واحد، ولذلك كانت كلماته مسموعة، ومقبولة، هنا وهناك.

وربما كان هذا، من الوجهة العملية، موقفا شديدا الذكاء، لأنه يضفي على صاحبه صفة العالمية وصفة الموضوعية، ويضمن له في الوقت ذاته شهرة في جميع أرجاء العالم، ما دام كل نظام يجد لديه ما يرضيه، ويستخدمه في الهجوم على خصمه، ويمكنه - من ناحية أخرى - أن يتجاهل العناصر المضادة له في كتاباته، ولكن هذا الذكاء العملي يشكل صعوبة شديدة بالنسبة إلى شارحي فكر ماركيوز، ذلك لأنه يجعل مسألة انتمائه الفكري غير قابلة للحل، وعدم الانتماء هذا قد يكون ناجما عن اتجاهه إلى تكوين رأي في الحضارة الإنسانية لا يجد صدى له في كل الإيديولوجيات الموجودة، ولكن الأرجح في نظري أنه يرجع إلى رغبته في أن يظل غامضا.





اسبينوزا



التضامن الذهني أو الفكري (مع العرب، بسبب عدائهم للإمبريالية) والتضامن العاطفي (مع إسرائيل).

ويقدم ماركيز بعد ذلك رأيه في هذا الموضوع بوصفه رأياً شخصياً وليس تحليلاً موضوعياً للموقف. ومن المؤكد أن تأكيد وجود تعارض بين رأيه الشخصي وبين التحليل الموضوعي هو في ذاته أمر ذو دلالة واضحة. ولكنه على أية حال يقدم في هذا الصدد عرضاً مسهباً لوجهة نظره في هذا الموضوع. ولما كان هذا العرض هو الموضوع الوحيد الذي اهتمنا فيه إلى رأي صريح ومفصل لماركيز في هذا الموضوع الحيوي. فقد أشرت أن أقدمه إلى القارئ العربي كاملاً. لكي يتبين له كيف كان هذا المفكر المشهور ينظر إلى قضية نزاعنا مع إسرائيل في أعقاب حرب عام 1967.

إنكم ستفهمون أنني أشعر بنفسية متضامناً مع إسرائيل لأسباب شخصية جداً. وهي في الوقت ذاته ليست شخصية فقط. فليس في استطاعتي. أنا الذي أعلنت مراراً أن العواطف والأفكار الأخلاقية والمشاعر تنتمي إلى السياسة. بل إلى العلم ذاته. ليس في استطاعتي إلا أن أرى في هذا التضامن أكثر من مجرد تحيز شخصي. فأنا لا أستطيع أن أنسى أن اليهود قد اضطهدوا وظلموا قروناً طويلة. وأن ستة ملايين منهم قد أيدوا منذ عهد ليس بالبعيد. تلك حقيقة واقعة. فإذا ما اهتدى هؤلاء الناس آخر الأمر إلى مكان لا يخشون فيه اضطهاداً ولا ظلماً. فلست أملك إلا أن أتضامن مع هدف كهذا. وإني لسعيد بأن أكون في هذه النقطة متفقاً مع سارتر. الذي قال: إن كان ثمة شيء ينبغي أن نمنع حدوثه بأي ثمن. فذلك هو حرب إبادة جديدة ضد إسرائيل. تلك هي المقدمة التي ينبغي البدء بها من أدل الإجابة عن السؤال الذي تطرحه إسرائيل. وهي مقدمة لا تلزمنا بالموافقة على كل أفعالها. كما أنها لا تلزمنا بتقديم تأييدنا إلى الظرف المضاد.

ولأشرف ما أعنيه. فأقول إن من الممكن النظر إلى إقامة دولة إسرائيل على أنه عمل ظالم. من حيث أن هذه الدولة أقيمت على أرض غريبة. وبفضل اتفاق دولي. من دون عمل حساب بالمعنى الصحيح للسكان الأصليين والمستقبلهم. ولكن هذا الظلم لا يمكن إصلاحه بظلم آخر أفدح. فالدولة موجودة. ولا بد أن نتفاهم مع جيرانها المعادين لها: هذا هو الحل الوحيد.

وإني لأعترف بأن إسرائيل قد أضافت ظلماً آخر إلى هذا الظلم الأول. فهي قد عاملت السكان العرب بطريقة أقل ما توصف به هو أن من الممكن الاعتراض عليها- وهو أخف الأوصاف- فسياساتها تكشف عن سمات عنصرية وقومية كان ينبغي. وما زال ينبغي. أن نرفضها بوصفنا يهوداً. فلا يصح أن يوافق المرء على أن يعامل العرب في إسرائيل بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية أو الثالثة. حتى لو كانت المساواة القانونية منوطة لهم.

وهناك ظلم ثالث (ولعلكم ترون أنني

خداعها كل من لديه أبسط إلمام بحقائق المشكلة. ولكن ما يهمنا في الأمر هو مستوى هذه الحجج ذاتها. والمبادئ التي ترتكز عليها. فمن الأمور التي تثير الدهشة حقاً أن يلجأ مفكر (تقدي)، لم تدعده المظاهر السائدة في أشد المجتمعات الصناعية تقدماً. ونفذ بفكره إلى (الجوهر) فاهتدى فيه إلى الحقيقة من وراء القناع المزيف. إلى حجج سطحية واهية كهذه. لكي يتخذ منها نقطة البدء. والركيزة الأساسية في مناقشة قضية النزاع العربي الإسرائيلي. وليس لهذه الظاهرة من تعليل سوى أن التعاطف المفرط (الذي لا يفصله عن التعصب سوى فارق كمي) قد أسكت صوت العقل فيه لكي يعلي صوت العاطفة الجردة. وهذه بدورها حقيقة اعترف بها ماركيز. وحاول أن يضعها في صيغة مبدأ عام. هو أن العوامل العاطفية والأخلاقية ينبغي أن يكون لها مكان في السياسة. بل في العلم ذاته.

وعلى الرغم من أن ماركيز يعلن. في هذه الحالة. مبدأ يمكن أن توجه إليه اعتراضات لا حصر لها. فإننا نود فقط أن نشير إلى أن العواطف التي يجب أن يسمح لها بالتأثير في السياسة لا بد أن تكون مرتكزة أصلاً على أساس عقلي. فالوضع السليم هو أن يقتنع العقل أولاً. ثم تأتي العاطفة بعد ذلك لكي تضيف إلى حكم العقل طاقة تدعمه وتزيد من حماسة الإنسان له. أما ذلك النوع من العاطفة. الذي لا يكون الإنسان قد استمع فيه أولاً إلى صوت العقل. فقد عانت منه البشرية ويلات كثيرة. يعرف ماركيز ذاته واحدة من أشدها قسوة. وأعني بها تجربة الحكم النازي. وإنه لمن سخرية الأقدار حقاً أن يقف ماركيز. الذي طالما ندد باحتقار النازية للعقل. وأكد أن هذا الاحتقار ذاته هو الذي يفسر نزوعها العدواني إلى هدم كل القيم الإنسانية. لكي يدافع عن مبدأ العاطفة الجردة في السياسة. ناسياً أن العواطف نسبية. وأنها يمكن أن تبرر كل شيء. وأن العطف على اليهود المضطهدين حين يصل إلى حد تشريد شعب بأكمله من أجلهم لا يشكل ظلماً إنسانياً صارخاً فحسب. بل يشكل أيضاً

لكي يتلقى ممثلون لإسرائيل وللعرب ويحاولوا حل مشكلاتهم بطريقة مشتركة- والحمد لله أن هذه المشكلات ليست هي مشكلات الدول الكبرى- والمثل الأعلى هو بالطبع أن تضع هذه المناقشات أسس تكوين جبهة مشتركة من إسرائيل وخصومها العرب ضد تدخل القوى الإمبريالية. ولو قامت هذه الجبهة لكانت شيئاً ظهر في أوانه. ذلك لأن البلاد العربية بدورها في حاجة إلى ثورة اجتماعية: وهو أمر ينبغي ألا ننساه. بل إن هذه الثورة قد تكون أشد إلحاحاً من تدمير إسرائيل).

هذا النص الهام ينير أسئلة كثيرة حول مدى تقدمية تفكير هربرت ماركيز. فهو كعادته في جميع مواقفه ينقد الطرفين معاً. ويدافع في الوقت ذاته عن جوانب معينة من سياستهما. ويتخذ بذلك أمام مستمعيه مظهر المفكر المحايد. ولكن ليس من الصعب أن يدرك القارئ من وراء هذا الحياد الظاهري اتجاه قويا إلى تأييد وجهة النظر الإسرائيلية. ولندكر دائماً أن الداعية الذكي ليس هو الذي ينحاز على طول الخط. بل هو ينقد أولاً- ليكسب الثقة- ثم ينحاز في إطار من هذا النقد.

ومن الواضح أن ماركيز لم يحاول أن يخفي انحيازه لإسرائيل بناء على أسباب وصفها بأنها (شخصية جداً. وهي في الوقت ذاته ليست شخصية فقط). أما الأسباب الشخصية فهي عقيدته وثقافته اليهودية (وهي عوامل لم تمنع مفكرين آخرين مثل رودانسون أو ليلنثال من مهاجمة هذه الدولة. بل ورفض فكرة إقامتها من حيث المبدأ). وأما الأسباب التي (ليست شخصية فقط) فهي أسباب عاطفية وأخلاقية. يرد فيها ماركيز القصة القديمة. قصة الملايين الستة من اليهود الذين قضت عليهم النازية. وقصة الشعب المضطهد الذي (اهتدى) أخيراً إلى مكان آمن. ومن ثم فلا بد من التضامن معه.

ولسنا نود أن نضيف رداً جديداً على هذه الحجج البالية التي يستطيع أن يكشف

أجعل مهمتي أكثر مشقة) هو أن سياسة إسرائيل الخارجية. منذ إنشاء دولتها. كانت تسير في السياسة الخارجية الأمريكية مسيرة تامة أكثر مما ينبغي. ففي الأمم المتحدة لم يحدث مرة واحدة أن اتخذ مندوب إسرائيل موقفاً يؤيد معركة التحرر التي يخوضها العالم الثالث ضد الإمبريالية. وهذا ما أتاح التوحيد بين إسرائيل والإمبريالية. وبين العرب والعداء للإمبريالية.

وفي هذه الناحية بدورها. لا ينبغي أن يبسر المرء مهمته أكثر مما يجب. فالعالم العربي ليس وحدة. وإنكم لتعلمون. مثلي. أنه يتألف من دول ومجتمعات تقدمية ورجعية. فإذا ما حدث المرء عن الدعم المقدم إلى الإمبريالية. كان في استطاعته أن يتساءل أيهما أنفع للإمبريالية: أصوات إسرائيل في الأمم المتحدة أم كميات البترول التي تقدمها هذه الدولة العربية أو تلك بلا انقطاع. وقد استؤنف تقديم هذه الكميات مرة أخرى. وثانياً ينبغي أن نتذكر أن إسرائيل قد اقترحت التفاوض مرات عديدة. ولكن مثلي البلاد العربية رفضوا ذلك الاقتراح. وثالثاً فهناك حقيقة واقعة هي أن ممثلين للعرب. ليسوا بأقلهم أهمية. قد أعلنوا صراحة أنه ينبغي أن تشن ضد إسرائيل حرب إبادة. هذه حقيقة واقعة (ومن المؤسف أن في الإمكان التيقن منها). في هذه الظروف. يستطيع المرء أن يفهم ويبرر حرباً وقائية. كتلك الحرب التي شنت ضد مصر وسورية والأردن.

فما الذي ينبغي عمله من أجل وضع حد لهذه البؤرة الخفية للنزاع؟ من المؤسف أن النزاع بين إسرائيل والدول العربية قد أصبح منذ وقت طويل نزاعاً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. وانتقل من المستوى المحلي إلى مستوى الدبلوماسية- الدبلوماسية العلنية والخفية- وإلى التنافس على تقديم الأسلحة إلى الطرفين المتنازعين. والمشكلة الكبرى الآن هي إرجاع هذا النزاع إلى حدوده الأصلية. فمن واجبنا أن نفعل كل ما في وسعنا

## العطف على اليهود المضطهدين حين يصل إلى حد تشريد شعب بأكمله من أجلهم لا

يشكل ظلماً إنسانياً صارخاً فحسب، بل يشكل أيضاً عدواناً صارخاً على العقل.

عدوانا صارخا على العقل. وحين يداري ماركيز طابع المفارقة هذا بقوله: (إن الدولة موجودة، وأن الحل الوحيد هو أن تفاهم مع جيرانها المعادين لها)، فإنه يزيد موقفه سوءا. إذ يتحدث بمنطق الأمر الواقع الخاضع للقوة الغاشمة، ويخلع عن نفسه- في هذه النقطة بالذات- رداء الفيلسوف، محب الحكمة والباحث عن الحقيقة.

ومن وراء مظهر الحياد الزائف، الذي يعدد فيه خطأ لهذا الطرف وخطأ لذاك، وميزة لهذا الطرف وأخرى لذاك، يحتشد تفكير ماركيز في المشكلة بمغالطات مضللة، فيفترض أن الخدمة الوحيدة التي تؤديها إسرائيل للإمبريالية هو أنها تمنحها صوتها في الأمم المتحدة، وهو يعلم جيدا أن المسألة ليست مسألة صوت زائد ينحاز إلى صف الإمبريالية في هيئة دولية لا تملك حتى الآن قوة تنفيذية، وإنما هي تخدم الإمبريالية عن طريق سياسة كاملة تمارسها في الشرق الأوسط. أصبحت بفضلها وسيلة الإمبريالية في إرهاب دول المنطقة وتخريب اقتصادها. أما الوجه المقابل، وهو تقديم دول الشرق الأوسط لبترونها

إلى الإمبريالية. فإن ماركيز يخدع نفسه إذا ظن أن الدول العربية لها فيه خيار. ويعلم أن إسرائيل ذاتها من أهم الأسلحة التي تستخدم، بصورة غير مباشرة، لكي يصبح وصول بتروال الشرق الأوسط إلى دول الغرب أمرا مضمونا.

إن ماركيز يخاطب، في هذا الحديث، جمهوره المفضل، الذي جلب له الشهرة، وأعني به مثلي الحركات الطلابية اليسارية. وهو يخاطب هذا الجمهور بنفس منطقته، إذ يعلم مدى عداة الطلاب اليساريين للإمبريالية العالمية، ولذلك يدعو في نهاية حديثه إلى ما يصفه بأنه الحل الأمثل، وهو تكوين جبهة مشتركة من إسرائيل وخصومها العرب تقف في وجه القوى الإمبريالية. هذا الحل يرضي مستمعيه إلى أبعد حد. لأنه يتمشى مع الأهداف التي يكافحون من أجلها، ولكن ماركيز أول من يعلم باستحالته العملية، إذ أن عداة إسرائيل للإمبريالية معناه تغيير كيانها من جذوره، إنه إذن يتملق مشاعر مستمعيه، ويوهمهم بأن إسرائيل سيكون في استطاعتها يوما ما أن تشارك في تحقيق

الأهداف التي يسعون إليها، وبذلك يضيء عليها صورة تقدمية هي أبعد ما تكون عنها.

وأغرب ما في الأمر أن ماركيز يفترض ضمنا في بداية حديثه، أن انحياز اليسار لإسرائيل أمر (مفهوم تماما). إنه يأخذ التزييف الذي وقعت فيه جبهات يسارية معينة على أنه حقيقة مسلم بها، وينظر إلى الأمر الواقع غير المنصف على أنه الحقيقة والواجب. وهو في تسليمه هذا يزيد من تأكيد الفكرة الباطلة التي تعد إسرائيل- وفقا لها- دولة تقدمية تحمل مشعل الحضارة في المنطقة التي تعيش فيها. وإنه لمن الغريب حقا أن يتناسى ماركيز الأسس الدينية والعنصرية التي قامت عليها دولة إسرائيل، ويتجاهل إصرار اليهود على رفض الكفاح من أجل الاندماج السوي في المجتمعات التي يعيشون فيها، لكي يؤكد أن عواطف اليسار تتجه بطبيعتها نحو إسرائيل، وأن عقله يتجه نحو المعادين للإمبريالية من العرب. وأحسب أن اليسار الذي يعاني من انقسام كهذا بين عقله وعواطفه لا يستحق أن يكون يسارا

بأي معنى من المعاني. وعلى أية حال فقد اتبع ماركيز في تعليقه هذا على القضية العربية الإسرائيلية أسلوبه المفضل، الذي يتملق فيه مشاعر الشباب، ويندمج اندماجا تماما مع طريقتهم في النظر إلى الأمور، ولكنه يقدم في الوقت ذاته إيجابيات ضمنية تكشف عن اتجاه مضاد إلى حد بعيد للتقدمية الحقة التي يدافع عنها هؤلاء الشباب.

هذا الموقف يمثل نموذجا مصغرا لطريقة ماركيز العامة في التفكير. ولو اتسع المقام لتضمن هذا المقال إثباتا مفصلا لهذا الحكم. وحسبي الآن أن أقول إن تفكير ماركيز ليس- في رأبي- من ذلك النوع الذي سيكتب له البقاء طويلا، وأن عبادة الشباب الناصر له، التي أخذت بوادر تضالها تظهر في الآونة الأخيرة، ستختفي في المستقبل، وسيدرجه التاريخ ضمن تلك الفئة التي تلمع سريعا وتنطفئ سريعا، لأن التائق الدائم وقف على المفكر الأصيل، الثابت على المبدأ، الذي يحدد مجال انتمائه بوضوح ويظل ملتزما به حتى النهاية.

## جمال عبد الناصر وقضية الصلح

### د. عبد العظيم أنيس

الصلح مع إسرائيل، وتشير المذكرة إلى أهمية أن يصدر النظام تصريحاً علنياً في وقت ما يعلن فيه نواياه غير العدوانية تجاه إسرائيل.

ولسنا نعلم شيئا عن الأسس التي جعلت رجال الخبايا الأمريكية يتوقعون أن يكون موقف ثورة يوليو/تموز (مرنا) في قضية الصلح، فرما يكون قد جرى نقاش بين هؤلاء وبين الضباط الأحرار، وخرجوا بهذا الانطباع من النقاش. ومن المؤكد أن هذا الموقف كان موجودا في أوساط عدد من الضباط الأحرار، فأنا مثلا أتذكر خطابا غربيا لصلاح سالم في الحلة عام 1953، تحدث فيه عن الصلح مع إسرائيل بشكل صريح، وكان محل اندهاش العديد من المثقفين.

وفي أول زيارة لكيرميت روزفلت بعد الثورة في أكتوبر/تشرين الأول 1952، وفي حفل العشاء الذي أقيم في منزل الوزير المفوض الأمريكي، وحضره عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وصلاح سالم وعبد المنعم أمين، أثير موضوع الصلح مع إسرائيل من جديد. ثم جاءت زيارة ريتشارد كروسمان النائب العمالي والوزير البريطاني السابق، في ديسمبر/كانون الأول سنة 1952، وكان هدف الزيارة الصريح سؤال عبد الناصر: (ماذا تنوي أن تفعل مع إسرائيل؟)، وهو نفس السؤال الذي وجهه أينشتاين لهيكل عندما قابلته في بريستون بعد ذلك بسنوات.

ولم تكن زيارة كروسمان مجرد مبادرة شخصية، فالثابت أنه طار بعد مقابلة عبد



إزاحة الملك فاروق، وربما نهاية الملكية، وأنه إذا كان لا مفر من عدو لا يخاف من هذا الانقلاب، فهي الطبقات العليا في مصر والإنكليز وليس إسرائيل.

### أمريكا ومساع للصلح مع إسرائيل

وكان هذا التقرير هو أول إشارة في التقرير الأمريكي إلى أن الثورة قد لا تكون معادية تماما لإسرائيل. وبعد الثورة وبالتحديد في سبتمبر/أيلول سنة 1952، أعدت- وفق رواية هيكل في (ملفات السويس)- مذكرة (تقدير موقف) في الخارجية الأمريكية تتضمن تأكيد أهمية تأييد النظام ماديا ومعنويا بهدف تحقيق أهداف الغرب وخصوصا

(الخصوص) غير متيسرة لغالبية الناس، وقد يكون من المفيد التعرض للموضوع في مقال واحد.

قبل وقوع ثورة يوليو/تموز- ووفقا لرواية كوبلاند- عاد كيرميت روزفلت (مسؤول الخبايا الأمريكية في الشرق الأوسط) إلى واشنطن بعد زيارة للقاهرة، وقدم لوزير الخارجية الأمريكي تقريرا عن الأوضاع في مصر ملخصه ما يأتي: إن الثورة الشعبية المتوقعة في دوائر الخارجية والتي يسعى إليها الشيوعيون والإخوان، ليست مطروحة، وأنه لا توجد طريقة لإبعاد الجيش عن التحرك، وأن الضباط الذين يرجح أنه يقودوا الانقلاب على نظام فاروق لهم دوافع سياسية، وأن على الولايات المتحدة أن تقبل

عندما طلب مني رئيس التحرير أن أكتب شيئا عن ثورة يوليو/تموز، ترك لي أن أختار الزاوية التي أتناول منها هذه الثورة. وبعد تفكير، استقر رأبي أن أتناول على وجه التحديد مسألة الجهود التي بذلت من الغرب لدفع عبد الناصر إلى الصلح مع إسرائيل خصوصا في السنوات الأولى للثورة، وقد استمرت هذه الجهود إلى وقت زيارة وزير الخزانة الأمريكي- أندرسون- إلى القاهرة في ديسمبر/كانون الأول سنة 1955، الذي جاء يعرض على مصر مقايضة السد العالي بالصلح مع إسرائيل.

وسبب اهتمامي بهذا الجانب اليوم، ينقسم إلى شقين: الشق الأول هو أن هذه القضية حية اليوم في ضوء المفاوضات والعثرات بين العرب وإسرائيل في واشنطن، ووصول جولات المفاوضات في هذا المضمار إلى عشر جولات.

أما الشق الثاني، فهو تاريخي في حقيقة الأمر، فهذا الجانب- ثورة يوليو/تموز وقضية الصلح- لا يعرف عنه غالبية الناس شيئا، وقلما تجد بين المثقفين من اهتم ببحث هذه القضية. وهناك عدد من الكتب التي تناولت في السنوات الأخيرة هذه القضية وفي مقدمتها كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل، خصوصا كتاب (ملفات السويس)، بالإضافة إلى بعض الكتب الأمريكية ومنها الكتاب القديم (لعبة الأمم) لمؤلفه ضابط الخبايا السابق مايلز كوبلان. إلا أن مثل هذه الكتب والوثائق المصاحبة لبعضها (كتب هيكل على وجه



حكومته، ثم عاد إلى القاهرة يحمل معه اقتراحاً أمريكياً مؤداًه أن واشنطن مستعدة أن تتقدم إلى الطرفين المصري والإسرائيلي بمشروعات حلول تفصيلية يوقعها الطرفان من دون لقاء بينهما، ثم تباح فرصة اللقاء بعد التوقيع. وحمل أندرسون معه إلى القاهرة ملفاً يحتوي على ثلاثة مشروعات رسائل: إحداها موجه من عبد الناصر إلى إيزنهاور، والأخرى تتضمن مبادئ التسوية مع إسرائيل كما تراها مصر، والثالثة موجهة من عبد الناصر إلى البنك الدولي يوافق فيها على إشراف البنك على موارد مصر المالية وأوجه صرفها خلال سنوات تنفيذ مشروع السد. وبعد مداوالات متصلة، انهارت المفاوضات التي عرفت تاريخياً باسم (مقايضة السد العالي بالصلح مع إسرائيل)، ورفض عبد الناصر الصفقة وشروطها. وسافر أندرسون غاضباً واستعد دالاس لإعلان رفض أمريكا تمويل مشروع السد العالي على نحو ما هو معروف.

يحكي هيكل في كتاب (ملفات السويس) أنه قد عقد اجتماع في الخبارات الأمريكية حضره جيمس إنجلتون وكيرميت روزفلت وفرانسيس راسل وريمون هير في أوائل 1956، لمناقشة الموقف من عبد الناصر بعد باندونغ وصفقة الأسلحة التشيكية ورفضه مقايضة السد العالي بالصلح مع إسرائيل. وفي هذا الاجتماع اقترح إنجلتون إطلاق إسرائيل ضد مصر. لكن روزفلت قال في الاجتماع: (إن أسلوب الانقلاب على عبد الناصر لا يصلح في مصر، وأنه ليست هناك وسيلة للخلاص منه إلا إذا تقرر اغتياله).

ولقد حاولت الخبارات البريطانية تدبير هذا الاغتيال بعد هذا الاجتماع. وعندما فشل هذا التدبير بدأ الاستعداد للعدوان الثلاثي، لكن تلك قصة أخرى.

روزفلت إقناع عبد الناصر أن يتضمن إعلانه فقرة تستهدف تطمين إسرائيل على أمنها.

ثم جاءت زيارة وزير الخزانة الأمريكي- أندرسون- في ديسمبر/كانون الأول سنة 1955، بعد صفقة الأسلحة التشيكية، وجرت آخر محاولة لمحاصرة قيادة الثورة في موضوع الصلح مع إسرائيل. فقد بدأ أندرسون أول اجتماع له مع عبد الناصر بسؤاله عن فرص السلام مع إسرائيل. وكان عبد الناصر قد بدأ يتخلى عن خط دفاعه القديم في المسألة الإسرائيلية عندما كان يقول إنها ليست من أولى أولوياته وأنها مشكلة عربية وليست مصرية. لقد تخلى عبد الناصر عن هذا القول لأنه لم يعد مقتنعاً، فاستبدله بخط دفاع ثانٍ مناسبة الأزمة التي أثارها اقتراح اشتراك إسرائيل في مؤتمر باندونغ، باعتبارها دولة آسيوية. لقد كان هذا هو رأي (أونو) رئيس بورما إحدى الدول الخمس التي وجهت الدعوة إلى المؤتمر. وأرسل عبد الناصر رسالة إلى (أونو) يقول فيها لأول مرة إن العرب على استعداد لقبول مشروع الأمم المتحدة لتقسيم فلسطين، فإذا قبلته إسرائيل، فإن الطريق يكون مهداً لاشتراكنا في باندونغ. وبالطبع لم تقبل إسرائيل المشروع ولم تشترك في باندونغ.

## عبد الناصر ورفض المفاوضات

وألان نعود إلى زيارة أندرسون وسؤاله لعبد الناصر الذي أعاد موقفه الذي اتخذه في باندونغ، وهو قبول مشروع التقسيم. وطار أندرسون إلى تل أبيب للتداول مع بن غوريون، وعاد مرة أخرى بعد أسبوع يحمل اقتراح بن غوريون بمفاوضات مباشرة في أي مكان علناً أو سرا، ورفض عبد الناصر.

ثم سافر أندرسون إلى واشنطن لقضاء عطلة عيد الميلاد مع أسرته وللتشاور مع

مع إسرائيل يقوم بها عبد الرحمن صادق- الملحق الصحفي بسفارتنا في باريس- بهذا الهدف، وحتى لا تتأخر مفاوضات الجلاء.

لكن إسرائيل كانت لا تريد تنفيذ اتفاقية جلاء بريطانيا عن مصر من دون اتفاق صلح مع إسرائيل، وعندما وقعت اتفاقية الجلاء في 27 يوليو/تموز سنة 1954، كانت إسرائيل قد بدأت تفقد الأمل في أن ينحاز عبد الناصر إلى صف التفاهم والصلح مع إسرائيل، وثبت لها خطأ تقديرات الخبارات الأمريكية في هذا الصدد، ومن هنا بدأت تحرك عملاءها في القاهرة والإسكندرية في عمليات تخريب واسعة النطاق بالقنابل بأمل إضعاف مركز النظام في مصر وإثبات عجزه، وهو الأمر الذي عرف بعد ذلك بـ(فضيحة لافون) بعد أن قبضت السلطات المصرية على الفاعلين وقدمتهم للمحاكمة. ولقد كان الهدف الأساسي من عمليات التخريب هذه الإساءة إلى اتفاقية الجلاء وإلى العلاقات المصرية الأمريكية. وفي فبراير/شباط سنة 1955، بدأت عمليات الاستفزاز ضد الجيش المصري في قطاع غزة بالغارة الإسرائيلية الأولى التي قتل فيها العشرات من الجنود والضباط المصريين، وكان الهدف من هذه العملية إثبات عجز النظام محلياً وعربياً خصوصاً أن الغرب قد رفض أن يعطى عبد الناصر السلاح الذي كان قد طلبه لتسليح الجيش.

ولقد كانت هذه الأعمال الاستفزازية من جانب إسرائيل تعني أن إسرائيل بعد أن فقدت الأمل من التفاهم مع عبد الناصر، قد قررت أن تلجأ إلى استفزازه. لكن لم يكن هذا هو موقف الجانب الأمريكي بالدقة حتى مع بداية طريق باندونغ. فعندما كان عبد الناصر على وشك الإعلان عن صفقة الأسلحة التشيكية، حاول كيرميت

الناصر إلى (تل أبيب) وقابل بن غوريون، ثم عاد إلى القاهرة بعد أسبوع يطلب مقابلة عبد الناصر مرة ثانية. وعندما تم اللقاء عرض عليه اقتراحاً إسرائيلياً باجتماع مشترك لثلاثين في أي مكان في العالم سرا أو علناً.

وفي كل عمليات (جس النبض) هذه للنظام الجديد، كان خط دفاع عبد الناصر هو أن موضوع إسرائيل لا يقع في سلم أولوياته، وأن هذه القضية على أي حال تخص الدول العربية مجتمعة لا مصر وحدها، وبالتالي لا تستطيع مصر أن تبت فيها وحدها، أما سلم أولويات الثورة فهو جلاء الإنكليز والتنمية. وقد ظل هذا هو موقف عبد الناصر حتى بدأت مرحلة المفاوضات مع بريطانيا للجلاء عبر قناة السويس. ويذكر هيكل في كتاب (ملفات السويس) أنه عندما بدأت هذه المفاوضات أرسل رئيس الوزراء الإسرائيلي- موسى شاريت- مبادرات مستقلة مع رسل كثيرين باقتراح لقاء مفاوضات مباشرة. وكان رد عبد الناصر على هؤلاء الرسل هو أن موضوع إسرائيل مؤجل بالنسبة له، وأن مشكلة فلسطين هي مشكلة جماعية عربية.

ثم جاءت زيارة وزير الخارجية الأمريكي دالاس لمصر في مايو/أيار سنة 1953، وكان دالاس قد قابل السفير الإسرائيلي في واشنطن أبا إيبان، قبل سفره إلى القاهرة واعترف له في هذا اللقاء أن خبراء الخارجية نصحوه بعدم فتح موضوع الصلح مع إسرائيل في زيارته الأولى لمصر. فرد أبا إيبان قائلاً: (إنها نصيحة تفوح منها رائحة البترول).

لكن دالاس لم يأخذ بوجهة نظر خبرائه وأثار موضوع الصلح على مائدة العشاء في منزل السفير كافري- وكان عبد الناصر وعامر من حضور هذا العشاء- بإلحاح، وقال إن السلام مع إسرائيل هو من طبيعة الأمور، وأن الإسرائيليين ساميون مثل العرب وأولاد عمومته، وأن الخطر الحقيقي هو الشيوعية وليس إسرائيل. ووفق رواية هيكل، اضطر عبد الناصر إلى الرد على بعض هذه الادعاءات مفنداً، وعندما سأله دالاس: (هل يعني هذا الرد استحالة السلام مع إسرائيل)، لجأ عبد الناصر إلى رده التقليدي وهو أن إسرائيل ليست شاغله اليوم!

## إسرائيل ضد جلاء بريطانيا

وعندما بدأت مفاوضات الجلاء مع الإنكليز، كان عبد الناصر يدرك أن إسرائيل ستكون في مقدمة المعارضين لجلاء القوات البريطانية عن القناة، لذا حاول عبد الناصر تطمين إسرائيل بأنه عند جلاء الإنكليز يمكن حل مشكلة الصلح بينها وبين العرب، ويحكي خالد محيي الدين في كتاب (شهود ثورة يوليو)، أنه خلال إقامته في الخارج بعد أزمة مارس/آذار سنة 1954، علم أن هناك اتصالات سرية

استقر رأي أن أتناول على وجه التحديد مسألة الجهود التي بذلت من الغرب لدفع عبد الناصر إلى الصلح مع إسرائيل

خصوصاً في السنوات الأولى للثورة، وقد استمرت هذه الجهود إلى وقت زيارة وزير الخزانة الأمريكي- أندرسون- إلى

القاهرة في ديسمبر/كانون الأول سنة 1955، الذي جاء يعرض على مصر مقايضة السد العالي بالصلح مع إسرائيل.

## راعي بقر أمريكي قادم من (تكساس)

صفوان قدسي

(3)

وبالفعل، فإن الولايات المتحدة استوعبت الدرس جيدا. وكان (جون كينيدي) يمثل البدايات الأولى لمرحلة استيعاب الدرس بشكل جيد. وعلى الرغم من أن (كينيدي) هو الذي أوصل العالم مرة أخرى إلى حافة الهاوية خلال أزمة كوبا الشهيرة عام 1961، وعلى الرغم من أنه هو الذي تحمل مسؤولية العملية العسكرية التي عرفت فيما بعد باسم معركة خليج الخنازير، نسبة إلى الخليج الذي نزلت فيه قوات الغزو بهدف إسقاط (كاسترو). فإن ذلك كله كان يجري وفق حسابات ميزان الرعب النووي البالغة الدقة والحساسية.

وحيث سقط (جون كينيدي) برصاصه مجهولة في أحد شوارع مدينة (دالاس)، كانت السياسة الأمريكية قد استوعبت معنى استحالة الحرب الشاملة في عصر التوازن النووي. وعلى الرغم من أن (جونسون) كان أشبه ما يكون براعي بقر أمريكي قادم من (تكساس) يحمل مسدسين جاهزين للاستعمال عند أية لحظة، فإن (جونسون) نفسه كان أسيرا للحقائق الجديدة التي فرضت نفسها على عالمنا.



قد انتقل بالفعل من عصر إلى آخر. إلا بعد حرب السويس وما نجم عنها من إنذار سوفيتي بأن الصواريخ التي تحمل الرؤوس النووية يمكن، خلال دقائق، أن تصل إلى لندن وباريس.

وكان معنى هذا الاكتشاف هو أن عصر السيادة المطلقة قد انتهى، وأن العالم أصبح محكوما بموازن بالغة الدقة والحساسية، وأن الحلم الأمريكي القديم بقيام عالم تكون فيه للولايات المتحدة السيادة المطلقة، قد تلاشى تماما.

(1)

كان (جون فوستردالاس)، يحلم بعالم تكون فيه للولايات المتحدة السيادة المطلقة. وهو لهذا السبب، كان يريد أن يقف بالعالم أمام حافة الهاوية بحيث يمنع الاتحاد السوفيتي من أن يلعب دورا أكثر فاعلية في السياسة الدولية وفي تقرير مصير العالم. وكان (دالاس) الذي يُعدُّ المهندس الأول لسياسة حافة الهاوية، يطمح إلى أن تنفرد الولايات المتحدة في رسم خريطة العالم. ولعل كتابه الذائع الصيت (حرب أم سلام؟) يفصح عن الكثير في هذا المضمار.

وكان (دالاس) بهذه السياسة يلخص مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية حين كان العالم يمر بطور بالغ الخطورة، وهو طور الانتقال من عصر الأسلحة التقليدية، إلى عصر الأسلحة ذات الدمار الشامل.

(2)

في ذلك الوقت، لم يكن ميزان الرعب النووي قد بدأ في ممارسة تأثيره الهائل على علاقات القوى الكبرى في عالمنا المعاصر. وكان الحديث عن إمكانية قيام حرب تقليدية، أقرب ما يكون إلى الحديث عن مسألة قابلة للتحقيق. ولم يكتشف (دالاس) حقيقة أن العالم